سلسلة الرسائل (٧٦)

مكة حرسها الله تعالى/١٤٤٦هـ

من صفات المسارعين إلى الخير

للشيخة أم عبد الله بنت الشيخ
مقبل بن هادي الوادعي
حفظها الله تعالى

روابط الشيخة عبر منصات التواصل

https://alwadei967.blogspot.com

https://t.me/alwad3ya

https://t.me/alwadeia2

https://whatsapp.com/channel/0029VaaQ6kF9Bb5seBKp2B18

https://chat.whatsapp.com/JxvDfXpwWyHBLYrPjEOPpS

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسوله ونبيه محمد الأمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله

أما بعد:

فنذكر أنفسنا إن شاء الله ببعض صفات المسارعين إلى الخير؛ لننظَمَّ في سلكِهم فإن ربنا عَزَّوَجَلَّ قد حثنا على المسارعة إلى الخير، وبيَّن جزاء المسارعين إلى الخير والبِرِّ؛ تحفيزًا إلى ذلك، وترغيبًا في الاتصاف بتلك الصفات الحميدة الرشيدة.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، ويقول سُبحَانَهُ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد: ٢١].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: ٢٦].

وقال سُبحَانَهُ بعد أن ذكر عددًا من الأنبياء وقص علينا قصصهم في سورة الأنبياء، ثم ذكر قصة زكريا عليهم الصلاة والسلام، فقال: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ

نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

سرعة إجابة الدعاء تكون للمتصفين بهذه الصفات المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

وقد استجاب الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لنبيه زكريا، ووهب له الولد يحيى بعد أن كان كبيرًا ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾، ضعف العظم عمود الجسم، وإذا ضعُف العظم فبقيته من باب أولى، ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ اشتعال الرأس بالشيب: إذا كان معظمه اللون الأبيض، ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾﴾ [مريم:٤]، توسل إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بأنه كان يدعوه، وأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يرد دعاءه؛ لأن رد الدعاء قد يكون لشقاوة والعياذ بالله عند الانسان[1]، فهنا ربنا

---

(١) قال الشنقيطي في «أضواء البيان» (٣/٣٦١) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾﴾ [مريم:٤]: أَيْ: لَمْ أَكُنْ بِدُعَائِي إِيَّاكَ شَقِيًّا، أَيْ: لَمْ تَكُنْ تُخَيِّبُ دُعَائِي إِذَا دَعَوْتُكَ، يَعْنِي أَنَّكَ

عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ هو وزوجته، ولوجود ضمير الجمع في قوله: {إِنَّهُمْ} يعود أيضًا إلى من تقدم من الأنبياء.

أما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ ففيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنها صارت تلد بعد أن كانت لا تلد.

والثاني: إصلاح خُلُقِها، قالوا: كانوا في خُلُقِها شيء، فأصلح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خُلُقَها، الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستظهر القول الأول، وأن المراد بـ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أنها صارت تلد، واستظهر هذا من دلالة سياق الآية.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يمكث في مصلاه بعد التسليم، ولم يكن ينصرف مباشرة، ولكن عند أن ذكر أن عنده صدقة، بادر إثر الصلاة مباشرة إلى بيته؛ ليخرجها. وهذا كما روى البخاري (١٢٢١) عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الحَارِثِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:

عَوَّدْتَنِي الْإِجَابَةَ فِيمَا مَضَى، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: شَقِيَ بِذَلِكَ إِذَا تَعِبَ فِيهِ وَلَمْ يَحْصُلْ مَقْصُودُهُ، وَرُبَّمَا أَطْلَقْتِ الشَّقَاءَ عَلَى التَّعَبِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧﴾، وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي ضِدِّ السَّعَادَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ إِجَابَةَ الدُّعَاءِ مِنَ السَّعَادَةِ، فَيَكُونُ عَدَمُ إِجَابَتِهِ مِنَ الشَّقَاءِ. اهـ.

صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العَصْرَ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ سَرِيعًا دَخَلَ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، ثُمَّ خَرَجَ وَرَأَى مَا فِي وُجُوهِ القَوْمِ مِنْ تَعَجُّبِهِمْ لِسُرْعَتِهِ، فَقَالَ: «ذَكَرْتُ وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ تِبْرًا عِنْدَنَا، فَكَرِهْتُ أَنْ يُمْسِيَ -أَوْ يَبِيتَ عِنْدَنَا- فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ».

وهذا من مسارعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الخير، وعدم التساهل فيه؛ فالموت يأتي فجأة، والصوارف تتوارد وتتوالى.

لقد ذكر الله تَعَالَى من صفات المسارعين إلى الخير ما يلي:

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذاريات].

وهذا من أبرز صفات المسارعين إلى الخير، ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦﴾ أي: في الدنيا، ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾ كان هجوعهم في الليل قليلًا، يسهرون في قيام الليل، يسهرون في الاستغفار، يسهرون في الذكر والخير، لا عبثًا وتسليًا، ومحادثة بالقيل والقال، ولكن سهر وسمر في الخير والعبادة، وهذا عكس ما عليه أهل هذا الزمن إلا من رحم الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سهرهم في الضياع، ومع الجوالات، ومع اللقاءات الفارغة، ومع الغفلة.

وانظرنَ هدي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد صلاة العشاء، يقول عروة بن الزبير: سَمِعَتْ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا كَلَامِي بَعْدَ الْعِشَاءِ الَّتِي تُسَمِّيهَا الْأَعْرَابُ الْعَتَمَةَ. قَالَ: وَكُنَّا فِي حُجْرَةٍ بينها وَبَيْنَهَا سَعَفٌ. فَقَالَتْ: يَا عُرَيَّةُ أَوْ يَا عُرْوَةُ مَا هَذَا السَّمَرُ؟ إِنِّي مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَائِمًا قَبْلَ هَذِهِ الصَّلَاةِ وَلَا مُتَحَدِّثًا بَعْدَهَا، إِمَّا نَائِمًا فَيَسْلَمُ، وَإِمَّا مُصَلِّيًا فَيَغْنَمُ[٢].

«إِمَّا نَائِمًا فَيَسْلَمُ» يسلم من المعاصي، يسلم من الشر، يسلم من الفتن.

«وَإِمَّا مُصَلِّيًا فَيَغْنَمُ» يربح، يغنم الخير.

فصلاة الليل غنيمة، صلاة الليل ربح وسعادة وبركة، والتفريط فيها حرمان، وهي من أسباب انشراح الصدر.

روى البخاري (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ، انْحَلَّتْ

---

(٢) رواه ابن أبي عمر كما في «المطالب العالية» (٣/٢٤٤). وهو في «الصحيح المسند» (١٦٣٢) لوالدي رَحِمَهُ الله.

عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ».

هذا في قيام الليل ليس فقط في صلاة الفجر، هذا من باب أولى.

فالذي يقوم ويصلي ما كُتب له يقوم وهو منشرح الصدر، ويرتفع عنه الهم والغم والكرب والضيق، يقوم وهو مرتاح البال نشيطًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «زاد المعاد»(٤/٢٢٧): قِيَامُ اللَّيْلِ مِنْ أَنْفَعِ أَسْبَابِ حِفْظِ الصِّحَّةِ، وَمِنْ أَمْنَعِ الْأُمُورِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمُزْمِنَةِ، وَمِنْ أَنْشَطِ شَيْءٍ لِلْبَدَنِ وَالرُّوحِ وَالْقَلْبِ. ثم ذكر حديث أبي هريرة المذكور.

فيا من تَشْكِيْنَ من فتور أو ضعْفٍ، قد لا يكون هناك أمراض، ولا أسباب حسية، ولكن داء كسل، فاسلكي الأسباب التي تعينك على النشاط، ومِنْ أهمِّهَا قيام الليل.

فهذا من صفات المسارعين السبَّاقين إلى الخير ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾، ما كانوا يفرِّطون في آخر الليل: السَّحَر، وهو: قُبيل الفجر، فما كانوا غافلين، وما كانوا مع النائمين، كانوا مستغفرين، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا

وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة].

﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ كانوا يعطون المحاويج، كانوا يؤدون الزكاة وما فرض الله عَزَّوَجَلَّ عليهم، فسبحان ربي ما أوسع كرمه، وأعظم فضله!

ولكننا نحن المقصرات في المبادرة إلى طرق الخير، فهؤلاء المسارعون إلى طرق الخير وإلى رضا رب العالمين، هم من المحسنين، ولهم الجنة.

ويقول سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران:١٣٣].

هذه دار المسارعين إلى الخير، دار المتقين، دار المحسنين ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن

﴿رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقد بدأ الله عَزَّوَجَلَّ هنا بالحث على المسارعة، ثم ذكر الجنة وأنها دار أعدَّها للمتقين المسارعين إلى الخير، فأجْمَلَ سبحانه حيث ذكر التقوى وهي كلمة جامعة؛ إذ معناها امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه.

ثم ذكر بعض صفاتهم على وجه التفصيل، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ ينفقون في وجوه الخير على كل حال، وبحسب ما ييسر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، «وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» كما رواه البخاري (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦) عن عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

أي: ولو بنصف تمرة.

والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يربيها لعبده، كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ» أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

فالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يعتني بتلك الصدقة، حتى لو كانت صغيرة، لكن بشرط أن تكون من كسب طيب، من كسب حلال، لا من سرقة، ولا من رشاوى، ولا

من ربا، ولا من أموال مغصوبة، من مال حلال، والمرأة أيضًا لا يكون أخذته من مال زوجها من غير علمه ورضاه، هذه تكون مأزورة لا مأجورة، فالله عَزَّوَجَلَّ يربي تلك الصدقة «كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ» وهو المُهْر، الفرس الصغير، المهر ولد الفرس، كيف يعتني صاحبه به؟ يعتني صاحبه بغذائه وشرابه، والله عَزَّوَجَلَّ يعتني بهذه الصدقة حتى تصير مثل الجبل، ولله المثل الأعلى، فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واسع!

ثم قال تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ هذه الصفة عزيزة، يكظم غيظه، لا ينفِّذ انفعاله، يكظمه في داخله، وكما قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ» رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

ما أحوجنا إلى هذه الصفة، وهذا الخُلُقِ الجميل، التغاضي، التسامح، عدم رد الإساءة بالإساءة، وسواء مع الأولاد يا أيتها الأمهات، مع الأهل، مع الجيران.

﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ يعفو عمن أساء إليه، وكما قال ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٥٤﴾ [القصص:٥٤]. أي: يدفعون.

وكما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝٢٢﴾ [النور:٢٢].

هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لما حلف ألَّا ينفق على مسطح رضي الله عنهما، وقد كان ينفق عليه؛ لقرابته منه، فلما زَلَّ في تلك القضية حلف أبو بكر، وقال: والله لا أنفق على مسطح، فنزلت الآية ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝٢٢﴾، قال أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: بلى والله إني لأحب أن يُغفر لي، وعاد إلى عطائه، امتثال من غير تردد، أو تأخير، أو تسويف، وهذه طريقة الصحابة رضي الله تعالى عنهم غاية في الاستجابة والامتثال؛ لهذا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اختارهم لصحبة نبيه محمد صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، ورفعهم، رضي الله عنهم ورضوا عنه.

فما أجمل صفة العفو! وما أحوجنا إليها؛ لأن الزلات تقع، حتى فيما بين الزوجين تقع، فإذا حصل عفو وتغاضي ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾، فضل عظيم، ونبينا محمد صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا

زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ». رواه الإمام مسلم (٢٥٨٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهنا فائدة نتذاكرها جميلة في الفرق بين العفو والصفح:

أن العافي قد يتذكر ما بين الحين والآخر الإساءة.

بخلاف الصفح يتجاهل ولا يتذكر ما مضى، فالصفح أبلغ من العفو، هذه الفائدة ذكرها الشيخ بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

فالصفح أبلغ من العفو؛ لأن الصفح لا يتذكرها مرة أخرى، بخلاف العفو قد يعفو ويقول: عفوت ولا يجازي السيئة بالسيئة، ويقول: عفوت، لكن في هذا القلب شيء، أو يذهب ثم يتردد على قلبه، العفو: التجاوز عن المسيء بعدم مؤاخذته، لكن البلوغ إلى مرتبة الصفح هذا لأهل المقامات الرفيعة العالية، يعني: القليل من يصل إليه كما يقال: الماضي لا يُذكر، الزمن على ثلاثة أقسام: ماضي، وحال، ومستقبل.

فالماضي الأفضل ما يتعلق به تجاهله وعدم الانشغال به، وليس مجرد الإساءات حتى في الأمور الأخرى لا يُتشاغل بالماضي.

ودعِ الذكرى لأيامِ الصِّبا... فلأيامِ الصِّبا نجمٌ أفلْ

إذا كان فقط مجرد ضياع، إلَّا إذا كان هناك مصلحة، مثلًا: للتذكار وللعبرة، يعني: تذكر مراحل العمر وسُرعة ما تمر، فيعتبر بها، فللفائدة والمصلحة لا بأس.

وعندك الزمن الحاضر الذي أنت فيه، هذا استغليه واشغليه في الخير.

وعندك الزمن المستقبل لا تُشغلي به، فان هذا يصرفك عن الانشغال بما ينفعك، انشغلي بالوقت الحاضر، أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» رواه مسلم (٢٦٦٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، والأمور يسيِّرها رب العالمين.

فمن يصل إلى مرتبة الصفح؟ هذا لا يصل إليه إلا أهل الإيمان أصحاب المقامات الرفيعة الذين يحرصون على تطبيق الفضائل، كل ما سمع من فضيلة حرص عليها، فنسأل الله التوفيق جميعًا.

ثم قال سُبحَانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝١٣٦﴾ هذا فيه التوبة من الذنوب، إذا اقترف ذنبا رجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، آب إلى الله سُبحَانَهُ، هذا من صفات المسارعين إلى الخير.

ثم قال سُبحَانَهُ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥﴾.

قال ابن القيم في «مدارج السالكين» (١٩٩/١): الْإِصْرَارُ هُوَ: الِاسْتِقْرَارُ عَلَى الْمُخَالَفَةِ، وَالْعَزْمُ عَلَى الْمُعَاوَدَةِ. اهـ.

عدم الإصرار على المعصية حتى لو كانت صغيرة، هذا ذنب اقلعي عنه ولا تعودي إليه، والذنب شؤم قد يُسبِّب الانحراف والزيغ، قال تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾[الصف].

ويقول سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾[المؤمنون: ٥٧-٦١]. وهذه عدة صفات من صفات المسارعين إلى الخير.

أيها الأخوات: نحن لا نتحدث بهذا للمحادثات، ولكننا نتحدث بهذا لتذكير أنفسنا وأخواتنا بما ينفعنا ويقربنا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فهنا يقول ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧﴾

أي: مُشفقون من خشية الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، والإشفاق والخوف متقاربان[٣].

---

(٣) قال ابن القيم في «مدارج السالكين»(٥٠٧/١): وَ((الْوَجَلُ)) وَ ((الْخَوْفُ)) وَ ((الْخَشْيَةُ)) وَ ((الرَّهْبَةُ)) أَلْفَاظٌ مُتَقَارِبَةٌ غَيْرُ مُتَرَادِفَةٍ.

وهذا من أبرز صفات المسارعين إلى الخير الإشفاق من خشية الله، ومن رُزِقَ خشية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه يكون عنده حاجز ورادع عن المعاصي، فيحرص على امتثال أوامر الله؛ لأنه يخشى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا أهل الجنة يتحدثون، وكان من محادثتهم ذكرهم لهذه الصفة، كما قال ربنا عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور].

أهل الجنة يذكرون بعض أعمالهم الصالحة التي كانوا يعملونها في الدنيا، حياة في طاعة الله، وفي مرضات الله، فكانوا يتحدثون في غاية السرور، وكيف لا يسرون وهم في الجنة، وفي نعيم الجنة، الدار التي أعدها الله عَزَّوَجَلَّ لأوليائه، دار الأمن والأمان، دار السلام، دار النعيم؟! فيقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦﴾ كان هذا من صفاتهم في حياتهم الأولى الإشفاق؛ لأنهم يُدركون أنَّ هذه الحياة مؤقتة، وأنها زائلة فانية، أما المفرطون في آخرتهم فحياتهم كلها أنين وحسرة وندامة، ويتمنون أنهم قدموا لحياتهم الحقيقية ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤﴾ [الفجر]، ما اعتبر الحياة الأولى شيئًا، مع أنه تعمَّر وبقى في الدنيا عشرات السنين وما اعتبرها شيئًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨﴾ يشمل الآيات الكونية والآيات الشرعية.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩﴾ لا يشركون لا شركًا أكبر ولا شركًا أصغر.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ يؤدون العبادة وهم في خوف على عبادتهم؛ لأن قد يكون هناك خلل يرد العبادة فيمنع قبولها، كأن يكون عنده تصنع للمخلوقين في العبادة، أو محبة مدح الناس، أو رياء وسمعة، كل هذا من الشرك، يعني: مما يؤثِّر في قبول العمل، فقد يكون هناك دسيسة خفية، نسأل الله أن يجنبنا ذلك.

وفيه أن من أوصاف المسارعين إلى الخير والجنة: أنهم لا يُعْجَبُون بأعمالهم، والعُجْب داء خطير.

فهذه جملة من صفات المسارعين إلى الخير التي ينبغي أن نحرص عليها وأن نسابق إليها.

ونستفيد من ذلك: التحذير من المسابقة إلى الدنيا وحطامها ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى].

ونبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «وَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنافَسُوهَا، فتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ» رواه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١) عَنِ عَمْرو بْن عَوْفٍ الأَنْصَارِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والواقع في حال الناس إلا من رحم الله التنافس في الدنيا، التنافس في الطريق التي حذرنا منها ربُّنا، التنافس في الطريق التي كانت سببًا لهلاك الأمم السابقة.

فيجب الحذر من فتنة الدنيا وشواغلها؛ فإنها تأكل الوقت، فتذهب سدًى، تطلع الشمس وتغرب، ويذهب الليل والنهار من دون استثمار، ومن دون فائدة واعتبار، وهذا من خطر الدنيا، أنها تلهي وتشغل وتفتن ثم ترمي بصاحبها، أيام قليلة وترمي بصاحبها وتلقيه، كما قال ربنا عَزَّوَجَلَّ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦]. وقال عَزَّوَجَلَّ ﴿۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: ٥٥]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ [نوح]، يكون على ظهر الأرض ثم يكون في جوفها، يكون في بطنها.

فيجب أن نقدم لأنفسنا ما يكون سببًا لنجاتنا من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، وما تقرُّ به أعيننا، في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه قريب ولا بعيد، ولا ولد والد، لا ينفع

فيه إلا ما قدمنا لأنفسنا ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾ [الشعراء].

وما أرحم ربنا بعباده لقد جعل دار الدنيا محفوفة بالآلام والمنغصات والمتاعب؛ حتى لا نركن إليها ولا نلتهي بها، فلا تشغلنا عن آخرتنا، فما نغص علينا دنيانا إلا ليرغبنا في الآخرة، فسبحان ربي ما كسر قلب عبده المؤمن إلا ليجبره، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا منعه إلا ليعطيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا نغص عليه دنياه إلا ليرغبه في آخرته، ولا ابتلاه بجفاء أحد إلا ليرده إليه، كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

حكمة الله، ومن أسمائه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الحكيم، ومن أسمائه الجبار؛ فهو يجبر قلب عبده المؤمن إذا كسره، وحكيم سُبۡحَانَهُۥ، أفعاله كلها حِكَمٌ؛ لا يفعل شيئًا إلا لحكمة.

أيها الأخوات أن المتأمل في جملة من آيات الله عَزَّوَجَلَّ ليجد هذا الخير الذي يقدمه العبد إنما هو لنفسه، لا يعود إلى الله من ذلك شيء.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٨﴾ [فاطر]، ويقول سُبۡحَانَهُۥ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت: ٦]، وقال سُبۡحَانَهُۥ:

﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢﴾ [لقمان]. وقال سُبحانَهُ ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢﴾ [النمل]، وقال سُبحانَهُ: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ في سورة الاسراء: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء]، فالله عَزَّوَجَلَّ لا ينتفع بشيء مما نقدمه من الأعمال الصالحة ومن الحسنات، وكما في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ، أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» رواه مسلم (٢٥٧٧) عَنْ أَبِي ذَرٍّ.

فلا نكوننَّ-حفظكن الله-من هذا الصنف الثاني من اللائمين لأنفسهم المعاتبين المتحسِّرين، الذين تذوب قلوبهم، وتتفتت أفئدتهم، ويبكون دمًا على تفريطهم في طاعة الله، ويتمنون الرجوع، وأنى لهم ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون].

اسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفعني وإياكن بما قلنا وبما سمعنا، وأسأله سُبحَانَهُ أن يجعلنا من المسارعين إلى الخير وإلى جنة الخلد .

والحمد لله رب العالمين .

تم نشر هذه المحاضرة ولله الحمد والمنة.

يوم السبت الموافق ٩/ من شهر شوال/ لعام ١٤٤٧ للهجرة النبوية

على صاحبها الصلاة والسلام.